الإنسان

هذا اللغز الأعظم !

يولد الإنسان والمعرفة غريزة مختلفة بدمه ، تنمو معه وتتشكل وفق عمره وبيئته ومستواه ، بها ينشىء ويعمر ، وعلى هداها تتعقد حياته . فكلما درج به الزمن درجت هي الأخرى تنمي مقومات حياته . وتسن نواميس الآداب والفلسفات والحركات الفكرية التي يسير عليها في جهاده . فهي من التقدم الجوهر الأصيل الذي يغيره لأختلط العدم بالوجود وتعاقبت الدهور تعاقباً آلياً لا تمايز خصائصها ولا تتدبر حدودها .

يخرج الطفل الى الحياة وبه ظمأ إلى التعرف على كل شيء ، فتتعاود عليه المراحل الزمنية وهو بينها ذات طامعة تنظر الى نفسها وتنظر الى غيرها ، تتعرف على كل ذلك تارة بالعاطفة وتارة بالغريزة ، وتارة بالعقل ، فتصطدم بالمظاهر الخارجية وتنتابها شتى الأزمات ، فتجتازها وهي بصيرة وقد تكون عندها كالأعمى الضرير ، وهي إن اجتازت أو كبت تستفيد من التجارب استفادة كبرى ، وتتحفز للمراحل القادمة تحفز المتطلع المشغوف في المعرفة ، إنه ، طلع الأمل ، ومن الأمل منبع الوجود ، ومنه تواثبت الأحداث فلم تدر ما الجمود وما الوقوف في يوم من الأيام . فليس في الفطرة الأولى يأس ، لأن الذات في هذه المرحلة جسورة غير هيابة ، راغبة غير متراجعة ، متقدمة غير جبانة ، لا تعرف ما الخور لأن التطلع هو الوقود الذي شحنت به لتتعرف على نفسها وعلى الوجود المحيط بها .

ومن هذه الغريزة ، غريزة المعرفة ، صارت الدنيا كما نراها ، وتركت حياتنا كما نعيشها ونلمسها ، وبفضلها سار الموكب البشري في سلسلة متصلة الحلقات كل لاحقة أرقى وأعقد من سابقتها ، وكل حاضر هو ثمرة الغرس الذي زرع في ماضي الحقبات .

ولولا هذه الغريزة لما نشأت العقول لوضع الفلسفات المتباينة لتفسير الإنسان وتفسير

الطبيعة ، ولما زخر التاريخ بالمدارس الفكرية التي عجّ بها التاريخ البشري منذ أن دهاه الأفراد الى أن بلغ مرحلته الراهنة التي يستمد فيها لوثبات هي أشبه بالمعجزات .

فالإنسان مدني بالطبع ، كما يقول ارسطو ، وكذلك هو نزّاع الى المعرفة بالفطرة أيضاً ، وهو يريد الاجتماع بغيره حبًّا في المعرفة قبل أن يجتمع حبًّا بالاجتماع .

* * *

والإنسان الأول نظر حوله فاذا ببراكين ثائرة تقذف الحمم ، وأعاصير مهولة تجتاح كل شيء ، وأمطار ثقيلة تغرق الزرع والضرع ، وبحار صاخبة تتلاطم أمواجها وترتفع وتنخفض عبابها ، كل هذا رآه فاستهوله ، ووضع أصبعه في فمه وراح يفكر ويتأمل : ما هذه الحمم ؟ وما هذه الأعاصير ؟ من يقذف تلك ومن يثير هذه ؟ هل هو إنسان مثله ؟ إذن فليجرب ، ولكن ما هو يفعل فلا يستطيع ، ويحاول فلا يقدر . اذن هي قدرة أقوى من قدرته : فما هي ؟ فليخترع لهؤلاء الجبابرة أسماء ، وليسمِّ لكل ظاهرة إلـٰه ، فهذا إلـٰه النار ، وهذا إلـٰه الماء ، وهذا إلـٰه الربيع ، وهذا إلـٰه القدر ... الخ . وارتاح الى هذا التفسير واطمأنّ الى ما وصل إليه تفكيره البدائي .

ثمّ تقدّم أكثر وأكثر واجتمع بغيره وتعقّدت علاقاته — نظر الى الجمال فراعه ، وشعر بالحب فاستساغ مذاقه ، وشرب الخمرة فانتشى برحيقها . وفطن الى أن يسمي أيضاً آلهة تدل على كل هذا . .

وظلّ يرتقي ويرتقي فتعاقله وامتدّ تفكيره وعمق احساسه فهتف به هاتف من سوّى هذا الوجود ؟ من أي مادّة صنع ؟ على أي نظام يدار ؟ كيف يتدرّج ؟ وعند هذا عرف الفلسفة ، وطفق يضع لها المعايير والموازين ، وعرفت الحياة أول فلاسفة يذكرهم الفكر الإنساني وهم فلاسفة « يونيا » فكانت فلسفتهم بدائية بالنسبة الى بيئتهم ، لأنها لم تكن إلاّ صورة مصغرة من « الميثولوجيا » التي فسر بها الأفراد الوجود في أول عهدهم . فهذا يقول أنّ مادّة الوجود النار ، وذاك يقول التراب ، وآخر يقول الماء ، والرابع يجمع كل ذلك فيقول الوجود مزيج من نار وتراب وماء .

وأخذت الفلسفة تعمق كلما تطوّر الانسان ونما، وراحت لا تنظر فقط الى مظاهر الطبيعة، بل ردّت البصر الى الإنسان نفسه تتفحص عقله وقلبه وغرائزه والبواعث التي توجهه . وابتدأ أفلاطون يبني نظرية «المثل» على أساس ساذج واه، فنال نهاية عهد من التفكير آذن بالأفول ليعقبه عهد جديد مثله ارسطو بفلسفته الكبرى التي كانت أعظم بناء فلسفي عرفته الفلسفة القديمة . فوضع معايير المنطق، وأقام البحث على أسس علمية ، ولم يقصر بحثه على الطبيعة وظواهرها، بل أخذ يختبر العقل الإنساني ويمتحن النفس البشرية .

وابتدأت الفلسفة تتدهور من بعد ارسطو ، وراح الفكر الانساني يعاني آثار الاجهاد، فبدا هذا التفسخ في أصناف من المذاهب المنحطة التي جاءت بعد ذلك كالابيقورية والكلبية. ثم قرعت الطبول تؤذن بمجيء النبوّات، وحلت عصور التفكير الديني التي وضعت فيها أسس الوحدانية ، ودخل الناس أفواجاً أفواجاً في الدين ، فتفيأوا هناك ظلال الإيمان السليم ، يعتقدون بواحد قهّار ، ولا يسألون عن ماهية هذا الواحد الذي ليس فوقه أحد .

ولكن أمن الممكن أن يستريح الإنسان ؟ أمن المعقول أن يؤمن بالعجز ؟ لا. فقد ثارت فيه غريزة الاستطلاع، وراح يفلسف الأفكار الدينية ويبني من جديد المذاهب على أسس عقلية منطقية . وأحسّ الدين أنّ القوائم التي تحمله تهتز ، وأنّ دعاماته تتقلقل ، ولكن رجاله كانوا في سبات ، فلم يحاولوا أن يبنوا الإيمان على أسس غير العاطفة ، وأن يجاروا الزمن .

* * *

وقامت الفرق الاسلامية في الشرق ، والدولة العربية في أوجها ، تجدد الدين وتدعمه بفلسفة جدلية قوية، حتى لو لاها الغزالي متقدّماً الصوفية في نشوته الأولى ، يهدم ما تواضع عليه القوم من خرافات وخزعبلات ليبتدأ فلسفة دينية عقلية كبرى . إلاّ أنّ موجات العقائد الزائغة التي وفدت من بلاد فارس ، مع الأسف ، حوّلت هذه الاتجاهات الفلسفية الرشيدة في العالم الاسلامي عن الطريق الذي كانت تسعى فيه لتدلها على طرق جديدة تبلبلت فيها العقول ، وانّ التراجع الذي بدا على التوالي أظهر ما يميز هذا التبدل ، فقد انقلب على نفسه

فبعد أن كان يرغب الخرافات صار يحملها على كتفه ليبيعها للناس .

وأمّا في الغرب ، فنحن الآن في القرون الوسطى : الظلام دامس ، والجهل سائد ، والعقل خامد . أينما أدار الفرد بصره لم يجد إلاَّ قصصاً يسيِّرون التاريخ وبابوات يقودون الأمم ، وكنائس تحكم أوروبة ، فعبثاً يفتش الإنسان عن النور الذي يفضح الدجل ، وعن المصباح الذي يرشد الى السبيل السوي في هذا الليل المتدمس . فالشمس قد اختصت قوماً دون قوم ، والعلم قد اتكل على أيد تعطيه السيطرة لا للنفع وتلح في تجزيه بالقطرات كي لا يفيض سيلاً يكتسح قلاع المتجبرين من السادة والأمراء ، ويذيب هذه القيود التي توهن قوى التفكير باسم العادات ، وباسم التقاليد وباسم الدِّين ، ولم يكن الدين إلاَّ ستاراً يخفي خلفه خزي فضائح رجاله ، وما العادات إلاَّ حجباً تفصل بين العبيد الذين يأكلون التراب ويلبسون العري ، وبين السادة في الطرف الآخر يأكلون علائق من الفضة ، ينتشون بكؤوس مرصعة .

* * *

وجاءت الثورة فكانت عنيفة على التقاليد وعلى الدين وعلى الطبقات ، فحاربت كل ذلك بالنور الذي سلطته على العقول التي غلفها الأتباع ، وجفف ماءها المتموج . وانتهب القوم كل ما في الكنائس من أكداس مكدسة من كتب العلم والأدب التي طواها رجال الدين كي لا يستفيد منها عقل ، ولا تأخذ منها جماعة ، والتهم الجوع الثقافي كل ما فيها ، وتطلع الناس إلى أشياء جديدة تتراقص والنظم القائمة على الأطلال الدارسة من عقائد الجهال والمحتالين وعلى المزخرفات المتبقية التي أخصب فيها الدود وتساقط منها القدم . ثم كان اختراع الطباعة الضربة الكبرى التي سددت للنظم البائدة المنحلة الشبعة بالتهتك ، فتهادت القلاع الشامخة وتشرّد الأمراء ونهض الفرد العادي يصيح بثورته : أنا التاريخ . فشادت نظم الحرية ، وأقيمت دعائم الحياة على أسس تتلاءم مع التفكير الجديد ، وحلّ صراع من نوع جديد ، صراع بين التفاسير الفلسفية والنظم الاخلاقية والعقائد السياسية ، وصارت للفلسفة « أدوار » كما للأزياء أدوار ، وللأخلاق قيم تتغير مع المواسم ، وأما العقائد السياسية

فلم تشهد عهود استقرار أبداً ، ففي كل يوم تهزّها هزّة، وفي كل ساعة تقيمها وتقعدها ثورة . وكل هذا متوقع وطبيعي ، لأنّ عهد الطوائف المسيطرة قد ولّى خلفه دور الفرد ، والحياة التي تسلم مقاليدها للفرد وجب أن تتبدل آراءه متعدّدة بقدر الأفراد . وهكذا تداخلت الأشياء، وخضعت الحياة الانسانية لوحدة عامة ، فالأخلاق والاقتصاد والسياسة والفلسفة يعمل كل في الآخر فعلاً إيجابيًا سلبيًا في آن واحد ، واندثرت وامحت تلك الحدود المزعومة التي تفصل بين ما يلبسه الفرد من أصناف الأحذية والقبعات ، وبين ما يرتأيه من نظم السياسة ومواصفات الأخلاق .

* * *

وامتلأ الجو بضجيج الفلسفات المتعاركة ، وبحركة العلوم التي ازدحمت بها الحياة ، هذا يفسر الوجود بالعاطفة، وذاك يفسره بالغريزة، وآخر ينكره وما يراه إلاّ نهاية وبداية تضيع بينهما الغاية ، وذاك يؤمن إيمان العاجز ، وهذا يؤمن إيمان المهولين الصاخبين ، وآخر هناك يلحد ويسرف في إلحاده حتى يكاد يقيم من أفكاره أوثان جديدة يعبدها من دون الله . وكان كل هذا يتمخض عن أساس جديد للحياة ، بل لم تكن إلاّ آلام المخاض التي يعانيها الوجود .

ثم أشرقت الشمس على هذه الأطلال ، وطلع على الدنيا ديكارت بمناهجه في تطبيق أساليب العقل وطرائقه في البحث على كل شيء — حتى الله . وراح يهدم ويبني ، فإذا فلسفة ارتفعت أبراجها حتى أمسكت بالسحب، ونزلت قواعدها حتى رسخت في الأعماق . وظلت فلسفة ديكارت تنمو وتنمو ، وتبعتها فلسفات سرت على نفس النهج تطبق أسلوب الجدل العقلي على كل فرع من فروع المعرفة .

وتزعم العقل كل مذاهب الوجود الى أن جاءت العصور الحديثة بعد صخب واختراعات القرن التاسع عشر ، فاذا بأصبعه في مطالع القرن العشرين تتزعزع وبقراعه ترتج بعد أن جحد الانسان فلم يساير عقله في قدراته ، كان يخترع وينشئ ويبني في الحيز الذي كانت دراسته لنفسه وأساليبه ونظمه في الحياة كما هي . سجين الطبيعة ولم يتحرر العلم لدراسة نفسيته

دراسة عقيمة صادقة ، فكانت كل جهوده منصبة الى الخارج ، ولم يوجه شيئاً منها الى الداخل .

***

وكان هذا الوضع ملائماً كل الملاءمة لتفسير للانسان جديد ، ولمذهب في الوجود يتماشي المطالب المستجدة ، ويملأ الفراغ الموجود . نعم كان هذا الوقت أنسب الاوقات لقيام « سيجمند فرويد » يبشر بتطبيقاته في علم النفس وتحليلاته في ميادين « البيولوجيا » . وكان الزمن أصلح الأزمان لان يبشر هذا العلامة بمذهبه بأن « الغريزة الجنسية » هي مفتاح السلوك البشري ، هذا المذهب الذي كان ثورة على كل ما تواضع عليه الناس من عرف وآداب ، ونهض الجامدون يحاربونه بأسم التقاليد والعادات والدين ، كما حورب العقل يوماً بها . وما كان فرويد صادقاً في كل تفاسيره ولم يكن صاحب مذهب بلغ الكمال ، ولا نصف المرحلة الى الكمال ، ولكنه صدق في تفسير جوانب كثيرة من السلوك البشري بطريقته العلمية التجريبية . إلا أن المتعصبين لم يرقهم ذلك ، وأخذوا يسفهون كل محاولة يقوم بها أي عالم من علماء الاجتماع لتطبيق نتائج بحوث فرويد على الظواهر الاجتماعية . فاذا ما أثبت العالم النفساني الكبير « فرانز الكسندر »[1] بأن أكثر المجرمين الذين أجرى تجاربه عليهم ثبت أن عقدة أوديب قد تمكنت فيهم تمكناً عنيفاً فراحوا ينفسون عن عواطفه المكروه التي رسبت فيهم بالاعتداء على المجتمع ، ثار عليه الرجعيون مع أن هذا العالم وصل في تجاربه الى أن أكثر من ٧٠ ٪ من المجرمين يحلمون بارتكاب الفحشاء مع أمهاتهم .

***

ولقد حقق الانسان اليوم ارادته ، فعطلت الدعاوى الزائفة ، وطغى العلم على الحياة ، ومهما قيل في هذه الفوضى فانها فوضى تمخضت عن عالم لا تفله الجهالات ولا العنعنات .

بغداد فؤاد طرزى

---

(١) في مؤلفه المجرم وقضاته

المدنيات القديمة

نشأ العمرانُ في الشرق أولاً بين الفرات والدجلة حيثما ظهرت مدنية الكلدانيين فأخذ البشر عنهم مبادىء الشرائع والعلوم الرياضية والهندسية والفلكية . وعلى شاطىء نهر الكانج استوطنت الحكمة الهندية البرهمية والتعاليم الحرّة البوذية . إن المدنية الهندية شغفت الفكرَ وظهرت بها قوة الروح ، لكنها مالت الى الخيال أكثر من ميلها الى التعقل . وعلى ضفتي النيل أينعت المدنية المصرية فقاربت الكلدانية بالتقدم والنجاح ، وفاقت غيرها بالتدين . وفي شواطىء سوريا ازدهرت المدنية الفينيقية فاستنبطت الأرقام والحروف فحفظت بذلك أساطير الحكمة وسهّلت مداولتها بين البشر ، أما بفلسطين فاختمرت شريعة العدل والحق فأخذ العالم عنها أسمى مبدأ ديني أي عقيدة الوحدانية بالذات . إن مدنيات على اختلاف نزعاتها مالت إلى المبدء الديني أكثر من ميلها الى الفكرة الفلسفية ، الأمر الذي قيّد الفكر البشري بروابط التقليد فلم تتقدم المعارف بينهم تقدمها في بلاد اليونان وطن الحرية والحكمة

أخذ اليونانيون مبادىء مدنيتهم من تلك الأمم الشرقية القديمة إلا أنهم لم يكتفوا بما حوته من معارف أولية بل هذبوها وزادوا عليها بما أضافوه من العلوم والمكتشفات التي أهمها تحرير العقل البشري من التقليد بفصلهم المعارف عن التعاليم الدينية ورفع سيطرة رجال الدين ، فوضعوا بعملهم هذا العلوم الفلسفية على أصول حقيقية قائمة على البحث والاختبار النظري فأينعت وأتت بأشهى ثمار العقل والحكمة . لقد اقتبس العالمُ منهم وسار على أثرهم معتمداً بذلك على فلسفتهم الراقية مستنيراً بأنوار حكمتهم الوقادة . لكنَّ الفلسفة اليونانية لم تتمكن من كبح جماح النفس لاستنادها إلى الأشياء المادية وإهمالها الأمور النفسية . وبما أنّ مدنيتهم قامت على مبادئها تأخر شأنها حتى كاد أن يقضى عليها بتطرق عوامل الفساد ، لفساد الأخلاق والمبادىء التي أقلقتها رغبات أهل الزعامة والساسة وأهواء الشعب وسفسطة الأدباء والخطباء وأطماع رجال الدين ، فانحلت أنظمة اليونان الاجتماعية لأنهم لم يوفقوا الى وضع تعاليم ترفعُ النفوس الى مبدأ أسمى من المقاصد النفعية أي الى طلب الكمال . لذلك بقيت النفوس عطاشاً لنبع ماوحيّ ينعشها ويبرّدُ ظمأها ويخفف أحزانها . لقد انتظرت الروح المعزّي عطية الحق لنوال النعمة السماوية لاحتمال المصائب ومتاعب الحياة الكثيرة بالصبر والتضحية على أمل المكافئة في عالمٍ ثانٍ روحاني

تتساوى فيه الكافة (العموم) إذ لا راحة في الأرض ولا مساواة بين البشر لأن الطبيعة البشرية تميل إلى التمتع بما هو مادي والنفس تتطلب ما هو روحي وقوى الطبيعة صارمة لا ترحم الضعيف والقوي يستبد بالأمر فتتلفه مقاومة .

إن الله خص كل واحد من البشر بمزايا متنوعة ومواهب مختلفة ضرورية لارتقاء نوع الانسان فكما أن الرأس يدير حركة كافة الأعضاء ويسيطر عليها لما به نفعها، كذلك اليد العاملة تقدم له ما يحتاج إليه من الغذاء وفي باشتراكهما هذا سلامة الجسد كله ولذا فبالتوفيق بين مطالب النفس والجسم راحة الحياة بالاعتماد على قوة الروح . وبما ان المدنية اليونانية لم تتمسك بهذه المبادىء طرأ عليها الانحلال فانفرط عقد مجتمعها وتفرقت كلمتهم فلم يوفقوا لتأسيس مملكة تؤيد عنصرهم وتحافظ على مدنيتهم وحينما تسلط عليهم الرومان أخذوا عنهم مبادىء العمران ونسجوا على منوال مدنيتهم إلا أنهم اعتمدوا على القوة تأييداً لسلطتهم المطلقة وحفظاً لفتوحاتهم الواسعة فلم يلتفتوا الى الفلسفة والفنون الجميلة ولم يستوفوها حقها من الاهتمام ولم يتعلقوا بحب الجمال لتعلقهم بمحبة السياسة . لقد اكتسحوا البلاد واكتسحوا الأموال وعاشوا عيشة الأبطال طلباً للسيادة والنوال ، لذلك لم تنتج قرائحهم آثار الحكمة ولم ترتق المعارف البشرية بينهم ،

اهتموا بالفلسفة اليونانية معتمدين عليها في تعاليمهم وشرائعهم ، لكنهم لم يوفقوا الى انشاء مدارس فلسفية جديدة . لا بل انحطت الفلسفة عندهم لأنهم لم يفهموها حق فهمها وان توفقوا بمبدإ القوة والعدالة الى عظامة السلطان وحفظه لكنهم خضعوا لسيطرة اليونان الأدبية وان كان هؤلاء من المغلوبين على أمرهم .

لقد اعترى المدنية الرومانية ما حل بزميلتها اليونانية من الأدواء (الأرزاء) لأن القوة لا تكفي وحدها لحفظ كيان الأمة بل سقطت ولم تجد الأنظمة للدفاع عن السلطة شيئاً بل انحلت الامبراطورية الرومانية وخضعت للأمم البربرية وهذه الأمم قد تهذبت بمبادىء الديانة المسيحية فتمدنت وصارت أهلاً لاقتباس الحضارة اليونانية . فتثقفوا بالفلسفة وكانت مشرق أفكارهم تتطاول إليها الهمم وتنتهي عند معرفتها الأفكار ، وقد صرفوا الأجيال الطوال في درسها والنسج على منوالها وعلقوا عليها الشروح الضافية حتى كان يكفي أن يقال « قال أفلاطون أو أرسطو » لإثبات الحجة وإفحام الخصم وبقيت الحالة كذلك والفكر مقيد بالعقم الى أن صار الانقلاب الأخير في زمن النهضة الحديثة التي جاءت بطرق جديدة اعتمدتها العلوم في نشأتها وتخلصت بواسطتها الفلسفة من التقليد وسيطرة رجال الدين . »

أسكلة — طرابلس الشام

أمين ضومط